الفصل الثالث

إخـــوة يـوســف

ويستمر إبليس في سبله من جيل لأخر؛ ليحقق مآربه من ذرية أدم التي توعدها بالهلاك، والخروج من رحمة الله كما كان مصيره؛ لكفره وعصيانه، وكان هدفه دائما الصفوة من البشر فإخوة يوسف أولاد يعقوب النبي، وإبليس هنا يريد أن يعلن قوته وأنه الأفضل فلم يكن أحفاد آدم بالنسبة لإبليس أفضل من أبنائه فكلهم من طينة آدم ولأن إبليس يرى نفسه دائماً الأفضل لأنه خلق من النار كما صور القرآن الكريم غروره:

"قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ(١٨)" الأعراف.

هذا هو الوصف القرآني لموقف إبليس، وهنا يتسلل إبليس مرة أخرى؛ ليكون صيده ثمين فمن هم هذا الصيد الثمين إنهم أبناء يعقوب، وإخوة يوسف فكيف تسلل إليهم إبليس؟ عندما ظن أبناء يعقوب أن أباهم يفضل يوسف وأخيه الصغير عنهم؛ حيث كانا أصغرا أبناء يعقوب وما كان ود ورحمة يعقوب بهما إلا لصغر سنهما وأنهما مهما طال عمر يعقوب لن ينالا من حنانه وعطفه كما نال أبناؤه الأكبر سناً؛ لهذا كان حب يعقوب زائد ليوسف وأخيه بنيامين. يعقوب نبي الله يعلم سريرة أبنائه يعلم طينتهم إلى أين ستذهب بهم؛ ويعلم أن النفس لأمارة بالسوء؛ لذلك حذر يعقوب يوسف وقال له كما ورد بالقرآن عندما قص رؤياه على أبيه "قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) يوسف.

فيعقوب يعلم جيداً موقف إبليس وتدبيره، وأنه والنفس الأمارة بالسوء لصحبة.

وكلما كان صدى تصرفات يعقوب مع يوسف وأخيه تزيد غيرة أبنائه الأكبر سناً يزيد إبليس الغيرة والحقد بوسوسته المستمرة عليهم، وصور

القرآن الكريم موقف إخوة يوسف في بلاغة قرآنية رائعة "لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) يوسف

اقتلوا يوسف، أو اطرحوه أرضا؛ يخل لكم وجه أبيكم، هكذا كانت وسوسة إبليس لأخوة يوسف؛ ليكون أبيكم خالصاً لكم دون يوسف وبدأ إبليس يبذل جهده لينال غرضه من إخوة يوسف فصور لهم تخطيطه الشيطاني لينالوا من يوسف ذهبوا إلى أبيهم وجهزوا عرض تمثيليتهم ليصحبوا يوسف معهم فقالوا كما ورد بالقرآن:

" قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) يوسف.

صوروا ليعقوب مدى حرصهم على يوسف حتى يأمن لهم على يوسف، وبالفعل نفذ إخوة يوسف خططهم التي رسمها لهم إبليس وألقوا بيوسف في غياهب الجب ولم يرف لهم جفن حزنا على أخيهم؛ وعادوا ليعقوب، ولم يكن معهم يوسف لتكتمل كذبتهم؛ وقالوا وهم يبكون ويصرخون يا أبانا يوسف أكله الذئب "وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) يوسف

كان رد يعقوب صريحًا عندما قصوا عليه كذبتهم بل سولت لكم أنفسكم نعم أنها النفس الأمارة بالسوء فهي ساعد إبليس، فيعقوب ينفى ويرفض بقلبه وعقله ما يقولون وقال لهم: صبرا يا أبنائي، والله المستعان على ما تصفون. يا ترى هل حزم إبليس أمتعته ورحل فقد نال ما تمنى؟، أن يعصي إخوة يوسف ربهم و أبيهم النبي ويقتلوا نفساً بغير حق، لا لم يتوقف كيد إبليس. ولكن عناية الله صاحبت يوسف حتى أصبح في دار عزيز مصر وتربى فيه ليكابد يوسف ملحمة الصبر على الشدائد ويواصل إبليس مكائده

مع يوسف ليأتي دور امرأة العزيز زليخة التي شغفها حب يوسف، وتنسى زليخة مكانة يوسف منها بغشاوة تحجب عن قلبها الحق، وتراوده عن نفسه، وهنا الفرق. يوسف محصن بالإيمان والخشية ومعية الله للعبد الصالح يوسف هو ممن ينطبق عليهم الوصف القرآني بسورة ص:

" قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ص.

إذن الإخلاص في عبادة الله وطاعته طوق نجاة من الوقوع في براثن الشيطان يأبى يوسف أن يطيع شيطان نفس زليخة الأمارة بالسوء ويقول كما ورد بكتاب الله محصناً نفسه أكثر وأكثر من هذا الشيطان الغاشم القادم عليه بمخلاب الرغبة واللاوعي "وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ(٢٤) يوسف.

انه قول فصل وما هو بالهزل قال فيه الله عز وجل: إنه من عبادنا المخلصين من كان مع الله فهو حسبه، واصل إبليس كيده متكئا على نفس زليخة الأمارة بالسوء ويؤيد لها أفكارها الشيطانية للانتقام من يوسف، ولكن هيهات لمن بمعية الله لن يقدر على نفسه المطمئنة إبليس، ويخرج يوسف من كيد إلى كيد، والله دائما ينصره؛ ليصبح بعد صبر عظيم عزيز مصر لتكتمل قصته مع إخوته مرة أخرى، وتكون الغلبة هذه المرة ليوسف وكيد المؤمنين، وهنا يتصدر القول سؤال أللمؤمنين كيد؟ نعم، من عصمه الله من كيد الشيطان بإخلاصه جعل له أسباب خلاص من هذا الكيد ودبر له معطياته وذكر بالقران الكريم " فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) يوسف

فقال رب العزة كذلك كدنا ليوسف؛ وما كان ذلك إلا تدبيراً من الله ليجمع الله يوسف وأخيه بنيامين ثم يأتي بهم جميعا ليعقوب ليصدق قوله ويفوز بصبره كما جاء بذكر القرآن.

"ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) يوسف

ويرد الله أبناء يعقوب إليه يوسف وأخيه بنيامين وهم أهل ملك وعز هؤلاء من أرد بهم الشيطان الكيد وكانوا مع الله مخلصين ولم يبقى إلا ندم أخوة يوسف على اتباعهم كيد إبليس كما ذكر بالقرآن الكريم " قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) يوسف.

ويتوبوا إلى الله جميعا ويخسر إبليس ليصبح مرة اخرى من النادمين